ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ[1] فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وأوضح النِّعم العامة على الكون ، والنعم الخاصة التى أنعم بها سبحانه على مَنْ توطَّنوا مكة ، ومن نسلهم مَنْ وقف ضد رسول الله ﷺ موقف العَنَت ، بعد ذلك جاء الحق سبحانه بهذه الآية تعزيةً وتسرية عن رسول الله ﷺ :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وأرضية التصوير التى سبقتْها تشتمل بدايةَ التكوين لهذا المكان الذى وُجدوا به ، وكيفية مَجىء النعم إلى مَنْ توطنوا هذا المكان ؛ حيث تجىء إليهم الثمرات ، ونعمة المَهَابة لهم حيث يعصف سبحانه بمَنْ يُعاديهم كأبرهة ومَنْ معه .

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ[2] مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل]

حيث يقول سبحانه من بعد هذه الآية مباشرة :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ[3] رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ

---

(١) شخص بصره : انفتحت عيناه فلا تطرف من الخوف والفزع والحيرة . [القاموس القويم ١/٣٤٣] .

(٢) العصف المأكول : التبن أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

(٣) الإيلاف : الاعتياد والأنس بالشىء ومحبته . والإيلاف أيضاً : العهد يؤخذ لتأمين خروج التجارة من أرض إلى أرض . قال ابن الأعرابى : أصحاب الإيلاف أربعة إخوة بنى عبد مناف : هاشم أخذ عهداً من ملك الروم ، ونوفل أخذ عهداً من كسرى ، وعبد شمس أخذ عهداً من النجاشى ، والمطلب أخذ عهداً من ملوك حِمْير باليمن . فكان تجار قريش يترددون على هذه الأمصار بعهود هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم أحد .[لسان العرب ـ مادة : ألف] .

هَـٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش]

ورغم ذلك وقفوا من دعوة رسول الله ﷺ موقف الإنكار والتعنُّت والتصدِّى والجُحُود ، وحاولوا الاستعانة بكل خُصوم الإسلام ؛ ليحاربوا هذا الدين ؛ ولذلك يوضح الحق سبحانه هنا تسريةً عن الرسول الكريم :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

لماذا ؟ وتأتى الإجابة فى النصف الثانى من الآية :

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وقوله الحق :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : لا تظننَّ ؛ فَحَسب هنا ليست من الحساب والعدّ ، ولكنها من « حسب » « يحسب » ؛ وقوله الحق الذى يوضح هذه المسألة :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ[1] ﴿٢﴾ ﴾

[العنكبوت]

أى : أظَنَّ الناس . فحسب يحسَب ليستْ - إذن - من العَدِّ ؛ ولكن من الظنِّ . والحُسْبان نسبة كلامية غير مَجْزوم بها ؛ ولكنها راجحة .

---

(١) الفتنة : الاختبار والابتلاء بالشدائد والمصائب ونقص الأموال والأولاد والثمرات ليُعرف مدى صدق المؤمنين . [القاموس القويم ٢/٧١] .

والغفلة التى ينفيها سبحانه عنه ؛ هى السَّهْو عن أمر لعدم اليقظة أو الانتباه ، وطبعاً وبداهةً فهذا أمْرٌ لا يكون منه سبحانه ، فهو القيُّوم الذى لا تأخذه سِنَة ولا نوم .

وهنا يخاطب الحق سبحانه رسوله والمؤمنين معه تبعاً ؛ فحين يخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ فهو يخاطب فى نفس الوقت كلَّ مَنْ آمن به .

ولكن ، أكانَ الرسول يظنُّ الله غافلاً ؟

لا ، ولنلحظْ أن الله حين يُوجِّه بشىء فقد يحمل التوجيه أمراً يُنفّذه الإنسانُ فعلاً ؛ ويطلب الله منه الاستدامة على هذا الفعل .

والمَثلُ : حين تقول لواحد لا يشرب الخمر « لا تشرب الخمر » وهو لا يشرب الخمر ؛ فأنت تطالبه بقولك هذا أنْ يستمرَّ فى عدم شُرْب الخمر ، أى : استمرَّ على ما أنت عليه ، فعلاً فى الأمْر ، أو امتناعاً فى النهى .

وهل يمكن أن تأتى الغفلة لله ؟

وأقول : حين ترى صفةً توجد فى البشر ؛ ولا توجد فى الحق سبحانه فعليك أنْ تُفسِّر الأمر بالكمالات التى لله .

والذى يفعل ظلماً سيتلقى عقاباً عليه ، وحين يتأخر العقاب يتساءل الذين رأَوْا فعْل الظُّلم فهم يتهامسون : تُرَى هل تَمَّ نسيان الظلم الذى ارتكبه فلاَن ؟ هل هناك غفلة فى الأمر ؟

وهم فى تساؤلاتهم هذه يريدون أن يعلنوا موقفهم من مرتكب الذنب ؛ وضرورة عقابه ، وعلى ذلك نفهم كلمة :

﴿ غَافِلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

فى هذه الآية بمعنى « مُؤجِّل العقوبة » .

ولمن يتساءلون عليهم أنْ يتذكَّروا قول الحق سبحانه :

﴿ وأُمْلِي[1] لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [الأعراف]

وعلى ذلك فليست هناك غفلة ؛ ولكن هناك تأجيل للعقوبة لهؤلاء الظالمين ؛ ذلك أن الظلم يعنى أَخْذ حقٍّ من صاحبه وإعطاءه للغير ؛ أو أخْذه للنفس .

وإذا كان الظلم فى أمر عقدىّ فهو **الشرك** ؛ وهو الجريمة العظمى ، وإنْ ظلمتَ فى أمر كبيرة من الكبائر فهذا هو **الفِسْق** ، وإنْ ظلمتَ فى صغيرة فهو **الظلم** .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - يُورد كل حكم يناسب الثلاثة مواقف ؛ فيقول عن الذى تغاضى عن تجريم الشرك :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة]

ويقول عن تجريم كبيرة من الكبائر :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة]

ويقول عمَّنْ يتغاضى عن تجريم صغيرة بما يناسبها من أحكام الدين :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة]

وإذا وُجد محكوم عليه ، وهو واحد - بأحكام متعددة فالحكم مُتوقِّف على ما حكم به .

---

(١) الإملاء : الإمهال والتأخير وإطالة العمر . وأملى الله له : أمهله وطوّل له . [لسان العرب - مادة : ملا] .

وحين ننظر فى مسألة الظلم هذه نجد أن الظالم يقتضى مظلوماً ، فإنْ كان الظُّلْم ـ والعياذ بالله ـ هو ظُلم القمة وهو الشرك بالله ، فهذا الظلم ينقسم ـ عند العلماء ـ إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : وهو إنكار وجود الله وألوهيته دون أن ينسبها لأحد آخر ؛ وهذا هو الإلحاد ، وهو ظُلْم فى واجب وجوديته سبحانه .

والنوع الثانى : هو الاعتراف بألوهية الله ، وإشراك آخرين معه فى الألوهية ، وهذا الشرك ظُلْم للحق فى ذاتية وواحدية تفرُّده .

والنوع الثالث : هو القول بأن الله مُكوَّن من أجزاء ؛ وهذا ظُلْم لله فى أحدية ذاته .

ويقول بعض العارفين : إن أول حقٍّ فى الوجود هو وجوده سبحانه .

ومنهم الشاعر الذى قال :

وأوَّل حَقٍّ فى الوُجُودِ وُجُوده ... وكُلُّ حُقُوقِ الكوْنِ منه استمدَّت

فَلا هُو جَمْعٌ كمَا قال مُشْرِكٌ ... ولاَ هُوَ فى الأَجْزاءِ يَا حُسْنَ مِلَّتى[1]

والظلم الذى ورد فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، هو ظلم القمة ؛ ظُلْم فى العقيدة الإلهية ، ومعه ظلم آخر هو ظلم الرسول ﷺ . ويُلخِّص الشاعر ظُلْمهم للرسول ﷺ فيقول :

---

(١) أى : يا حُسْن ملة الإسلام التى جاءت من عند الله مثبتة وجوده دون شريك له فى الملك ودون أن يكون مكوناً من أجزاء ، فأثبتت له سبحانه وجوبية وجوده ، وواحدية تفرده ، وأحدية ذاته سبحانه . (ع)

لَقَّبتمُوه أمِيناً فى صِغَرٍ وَمَا الأمينُ علَى قَوْلٍ بِمُتَّهِمِ

وهم قد سَمَّوا الرسول من قبل الرسالة بالأمين ؛ وبعد الرسالة نزعوا منه هذا الوصف ، وكانوا يَصفونه قبل الرسالة بالصادق ، ولم يقولوا عنه مرة قبل الرسالة إنه ساحر ، ولم يتهموه من قبل الرسالة بالجنون .

فكيف كانت له أوصاف الصِّدق والنطق بالحق ؛ والتحدث عن رجاحة قدرته فى الحكم ؟

كيف كانت له تلك الصفات قبل الرسالة ؛ وتنزعونها منه من بعد الرسالة ؟

إن هذا هو ظلم سلْب الكمال ، فقد كان للرسول ﷺ كمال قبل أن يُرسلَ ؛ فظلمتموه بعد الرسالة وأنكرتم عليه هذا الكمال ؛ وهو ظُلْم مُزْدَوج .

فقد سبق أن اعترفتم له من قبل الرسالة بالأمانة ؛ ولكن من بعد الرسالة أنكرتُم امانته ، وكان صادقاً من قبل الرسالة ؛ وقلتم إنه غَيْر صادق بعدها .

ولم تكن له صفة نَقْص قبل الرسالة ؛ فجئتم أنتم له بصفة نقص ؛ كقولكم : ساحر ؛ كاهن ؛ مجنون ، وفى هذا ظُلْم للرسول ﷺ .

وهذا أيضاً ظُلْم للمجتمع الذى تعيشون فيه ، لأن مَنْ يريد استمرار الاستبداد بكلمة الكفر ، ويريد أن يستمرَّ فى السيادة

والاستغـلال والتحكُّم فى الغير ؛ فكُلُّ ذلك ظُلْم للمجـتمع ؛ وفوق ذلك ظُلْم للنفس ؛ لأن مَنْ يفعل ذلك قد يأخذ متعة بسيطة ؛ ويحرِم نفسه من متعـة كبيرة ؛ هى مـتعة الحيـاة فى ظلِّ منهج الله ، وينطبق عليه قول الحق الرحمن :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل]

وفوق ظُلْم النفس وظُلْم المجتمع هناك ظُلْم يمارسه هذا النوع من البشر ضد الكون كُلّه فيما دون الإنسان ؛ من جماد وحيوان ونبات ؛ ذلك أن الإنسانَ حين لا يكون على منهج خالقـه ؛ والكون كله مُسخَّر لمنهـج الخـالق ؛ فلـن يرعى الإنسـانُ ذلـك فى تعـاملـه مع الكون ، وسبحانه القائل :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

حين يُسـبِّح كل ما فى الكون يشذّ عن ذلك إنسـانٌ لا يتبع منهج الله ؛ فـالكون كله يكرهه ، وبذلك يظلم الإنـسان نفـسـه ويظلم الكون أيضاً .

وهكذا عـرفـنا ظُلْم القـمـــة فى إنكار الألوهيـة ، أو الـشـرك به سبـحانه ، أو توهُّم أنه من أجـزاء ، وظُلْم نزع الكمال عـن الرسول ؛ وهو الواسطة التى جاءت بخبر الإيمان ؛ وظُلْم الكون كله ؛ لأن الكون بكل أجناسه مُسبِّح لله .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ .. (٤٢) ﴾ [إبراهيم]

نجد فيه كلمة « يعمل » . ونعلم أن هناك فَرْقاً بين « عمل » و « فعل » ، والفعل هو أحداث كل الجوارح ، ما عدا اللسان الذى يقال عن حدثه « القول » .

فكل الجوارح يأخذ الحادث منها اسماً ؛ وحدث اللسان يأخذ اسماً بمفرده ، ذلك أن الذى يكب[1] الناس على مناخرهم فى النار إنما هو حصائد ألسنتهم[2] ، والفعل والقول يجمعهما كلمة « عمل » .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه « يعمل » ، ذلك أن المشركين الذين استقبلوا القرآن كانوا يُرْجفون[3] بالإسلام وبالرسول ﷺ بالكلام ؛ وكل الأفعال التى قاموا بها نشأتْ عن طريق تحريض بالكلام .

وتأتى هذه الآية الكريمة التى يُؤكِّد فيها سبحانه أنه يُمكِّن لهم الذنوب ليُمكِّن لهم العقوبة أيضاً ؛ ويأتى قوله :

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

ونعلم أنه قد حدثتْ لهم بعضٌ من الظواهر التى تؤكد قُرْب انتصار رسول الله ﷺ ؛ فَقُتل صناديدهم وبعض من سادتهم فى

---

(١) كب الشىء يكبه : قلبه . وكبّه لوجه فانكب أى : صرعه . [لسان العرب ـ مادة : كبب] .

(٢) عن معاذ بن جبل أنه قال : يا نبى الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٣١ ، ٢٣٦) والترمذى فى سننه (٢٦١٦) وقال : « حسن صحيح » .

(٣) أرجف القوم إذا خاضوا فى الأخبار السيئة وذكر الفتن . قال تعالى : ﴿ والْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأحزاب] هم الذين يُولِّدون الأخبار الكاذبة التى يكون معها اضطراب فى الناس . [لسان العرب ـ مادة : رجف] .

بدر ؛ وأُسِر كبراؤهم ، وهكذا شاء سبحانه أنْ يأتيَ بالوعد أو الوعيد ؛ جاء بالأمر الذى يدخل فيه كُلُّ السامعين ، وهو عذابُ الآخرة ؛ إنْ ظلُّوا على الشرك ومقاومة الرسالة .

و : ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم]

يعنى : تفتح بصورة لا يتقلَّب بها يَمْنة أو يَسْرة من هَوْل ما يرى ؛ وقد يكون عدم تقلُّب البصر من فَرْط جمال ما يرى ، والذى يُفرِّق بينهما سيَال خاص بخَلْق الله فقط ؛ وهو سبحانه الذى يخلقه .

فحين ترى إنساناً مذعوراً من فَرْط الخوف ؛ فسحْنته تتشكَّل بشكل هذا الخوف ، أما مَنْ نظر إلى شيء جميل وشَخصتْ عيناه له ، يصبح لملامحه انسجامُ ارتواء النظر إلى الجمال ؛ ولذلك يقول الشاعر :

جَمَالُ الذى أهْواهُ قَيْد نَاظرِىَ ... فَلَيْتَ لِشَىءٍ غيرِه يتحوَّلِ

ويمكننا أن نفرق بين الخائف وبين المستمتع بملامح الوجه المنبسطة أو المذعورة .

ونعلم أن البصر ابن للمرائى ؛ فساعة تتعدَّد المرائى ؛ فالبصر يتنقَّل بينها ؛ ولذلك فالشخص المُبصِر مُشتَّت المرائى دائماً ؛ ويتنقل ذهْنه من هنا إلى هناك .

أما مَنْ أنعم الله عليهم بنعمة حَجْز أبصارهم - المكفوفين - فلا تشغله المرائى ؛ ولذلك نجدهم أحرصَ الناس على العلْم ؛ فأذهانهم غير مشغولة بأىّ شيء آخر ، وبُؤْرة شعور كل منهم تستقبل عن طريق الأذن ما يثبت فيها .